كيف يصلح القلب؟

تكمن صلاح القلوب وسعادتها بالإنشغال بما ينفع من الأعمال والأقوال ويقرب إلىٰ الله – عزّ وجلّ –، وفي التفكير بما ينفع ،واجتناب كل ما يضر من الأمنيات والشّهوات الرذيلة والقبيحة ووسوسة الشيطان وطرقه، وتذكُّر الموت وسكرته، والقبر وظلمته، والبعث وشدّته، والصّراط وحدّته، وحاسب النّفس ومراقبتها، والإكثار من سؤالها ماذا أعددتي إذا فارق الروح الجسد؟ وإلىٰ أين المصير يوم لا يُغني النصير؟ هل تزوّدتي بزادٍ تبيض فيه الوجوه، أم أنك حملت حملاً عصيباً ، فأفزعك الأمر الغريب، يوم تخلّىٰ عنك الحبيب والقريب، وفرَّ منك الوالد والولد المجيب.

قال الإمام ابن القيم (١) - رحمه الله -:

« فإذا دفعْتَ الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكراً جوّالاً. فاستخدم الإرادة فتساعدت هي والفكر علىٰ استخدام الجوارح، فإن تعذّر استخدامها رجعا إلىٰ القلب بالتّمنّي والشّهوة، وتوجهه إلىٰ جهة المراد، ومن المعلوم أنّ إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادة، وإصلاح الإرادة أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد، فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شرّ، ومن فكّر فيما لا يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر، والإرادة والهمّة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإنّ هذه خاصيتك وحقيقتك الّتي تبتعد

(١) انظر: «الفوائد» (ص٢٢٥ - ٢٢٧).

بها أو تقرب بها من إلهك ومعبودك الّذي لا سعادة لك إلاّ في قربه ورضاه عنك، وكل الشّقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلاّ كذلك.

وإيّاك أن تمكّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنّهُ يفسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرّة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الّذي أعنته علىٰ نفسك، بتمكينه من قلبك وخواطرك فملّكها عليك، فمثلُكَ معه مثال صاحب رحى يطحن فيها جيّد الحبوب، فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونه، فإذا طرده ولم يمكنه من إلقاء ما معه في الطّاحون استمرّ علىٰ طحن ما ينفعه، وإن مكّنه من إلقاء ذلك في الطّاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطّحين كله فاسدًا، والذي يُلقيه الشّيطان في النفس لا يخرج

عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان علىٰ خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أو فيما يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام، أو في خيالات وهميّة لا حقيقة لها ، أو في باطل، أو فيما لا سبيل إلىٰ إدراكه من أنواع ما طوىٰ عنه علمه، فيلقيه في تلك الخواطر الّتي لا يبلغ منها غاية، ولا يقف منها علىٰ نهاية، فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح همّه.

وجماع إصلاح ذلك:أن تشغل فكرك في باب العلوم والتّصوّرات بمعرفة ما يلزمك من التّوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلىٰ دخول الجنّة والنّار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها . وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرح إرادة ما يضرّك إرادته، وعند العارفين أنّ تمنّي الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضرّ علىٰ القلب

من نفس الخيانة، ولاسيّما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها، فإنّ تمنّيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده.

وأنت تجد الشّاهد أنّ الملك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخدمه من هو متمنّ لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلئ منها، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله، فإذا اطّلع علىٰ سرّه وقصده، مقته غاية المقت، وأبغضه، وقابله بما يستحقّه، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جنىٰ بعض الجنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطوٍ علىٰ تمنّي الخيانة ومحبّتها والحرص عليها، فالأوّل يتركها عجزاً واشتغالاً بما هو فيه وقلبه ممتلئ بها، والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها، فهذا أحسن حالاً وأسلم عاقبة من الأول.

وبالجملة فالقلب لا يخلو قط من الفكر إما في واجب آخرته ومصالحها، وإما في مصالح دنياه ومعاشه، وإمّا في الوساوس والأماني الباطلة والمقدّرات المفروضة، وقد تقدّم أنّ النفس مثلها كمثل رحىٰ تدور بما يلقىٰ فيها، فإن ألقيت فيها حبًّا دارت به، وإن ألقيت فيها حصىً وزجاجًا وبعرًا دارت به، والله – سُبحانه – هو قيِّم تلك الرحىٰ ومالكها ومصرفها، وقد أقام لها ملكًا يلقي فيها ما ينفعها فتدور به، وشيطاناً يلقي فيها ما يضر فتدور به، فالملك يلم مرة والشيطان يلم بها مرة، فالحب الّذي يلقيه الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، والطحين علىٰ قدر الحب، وصاحب الحب المضر لا يتمكن من إلقائه إلاّ إذا وجد الرحىٰ فارغة من الحب وقيّمها قد أهملها وأعرض عنها، فحينئذ يبادر إلىٰ إلقاء ما معه فيها.

وبالجملة، فقيّم الرحىٰ إذا تخلّىٰ عنها وعن إصلاحها وعن إلقاء الحبّ النّافع فيها وجد العدو السبيل إلىٰ إفسادها وإدارتها بما معه، وأصل صلاح هذا الرحىٰ بالاشتغال بما يعنيك، وفسادها كله في الاشتغال بما لا يعنيك، وما أحسن ما قال بعض العقلاء: لما وجدت أنواع الذخائر منصوبة غرضًا للمتالف، ورأيت الزّوال حاكمًا عليها مدركًا لها، انصرفت عن جميعها إلىٰ ما لا يُنازع فيه ذو الحجا أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر، والله المستعان».

حقيقة طمأنينة القلوب وسعادتها

إنّ حقيقة الطمأنينة والسّعادة الّتي تنشرح بها القلوب وتسكُن إليها تكمُنُ وتتمثل في طاعة الله -عزّ وجلّ- ورسوله - ﷺ -، ففي انقياد العبد لله -عزّ وجلّ - بتحقيق كمال التّوحيد، والعمل بالمأمور، واجتناب المنهي عنه والمحذور، حقيقة الطمأنينة والسّعادة الّتي لا يشعُر بلذّتها إلاّ من أخلص وصبر علىٰ لزوم الطّاعة، وانتهىٰ وابتعد عن الانغماس بظلمة المعصية، وأنّ من جملة الطاعات الّتي تزكوا وتطمئن بها القلوب الإكثار من ذكر الله - عزّ وجلّ - وقراءة القرآن وتدبّره وتفكره والعمل به، قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرّعد: ٢٨].

قال الإمام السّعدي - رحمه الله تعالى -:

«أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذّاتها، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها، وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوىٰ ذكره، فإنّه لا شيء ألذّ للقلوب وأحلىٰ من محبة خالقها، والأُنس به ومعرفته، وعلىٰ قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا علىٰ القول بأن ذكر الله هو ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إنّ المراد بذكر الله كتابه، الّذي أنزله ذكرىٰ للمؤمنين، فعلىٰ هذا معنىٰ طمأنينة القلب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه، تطمئن لها، فإنها تدل علىٰ الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنّها لا تطمئن القلوب، إلاّ باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون علىٰ أتمّ الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكُتب الّتي لا ترجع

إليه، فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة، وتضاد الأحكام ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا إنّما يعرفه من خبر كتاب الله، وتدبّره، وتدبّر غيره من أنواع العلوم، فإنّه يجد بينها وبينه فرقًا عظيمًا»[١].

فهذه هي الطمأنينة الحقيقية للقلوب، فحقيقة قلب المؤمن لا تزكوا ولا تصفوا وتطمئن إلاّ بالإكثار من ذكر الله – عزّ وجلّ – وتدبّر كتابه واتّباع رسوله، وعدم الغفلة والإعراض، فالإعراض عن ذكر الله – عزّ وجلّ – من أعظم صفات المنافقين، ومن أعظم أسباب القلق والضنك في الدُّنيا، كما قال الله – عزّ وجلّ –: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه: ١٢٤].

---

(١) «تفسير السّعديّ» (٣٩٦).

قال الحافظ ابن كثير [١] - رحمه الله -:

«أي خالف أمري وما أنزلته علىٰ رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ في الدُّنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلىٰ اليقين والهدىٰ، فهو في قلق وحيرة وشكّ، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

فهذه المعيشة السّيّئة الضّنكة جزاء لمن أعرض عن تدبّر كتاب الله – عزّ وجلّ – وعن ذكر ربه واتباع هدي نبيه – ﷺ – أو فسرت هذه المعيشة – أيضًا – بعذابه في القبر.

وقال الله – سبحانه وتعالىٰ –: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٥/١٨٨).

الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) ﴾

[الزخرف: ٣٦، ٣٧].

قَالَ الإمامُ السَّعديُّ (١) - رحمه الله -:

« يُخبر - تعالىٰ - عن عقوبته البليغة بمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾، أي: يُعرض ويصد ﴿ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ الّذي هو القرآن العظيم، الّذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغبات، ومن أعرض عنها وردّها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيَّضَ له الرحمن شيطانًا مريدًا يُقارنه ويُصاحبه، ويعده ويُمنّيه ويؤزه إلىٰ المعاصي أزًا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾، أي: الصراط المستقيم والدين القويم

(١) انظر: « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان » السعديّ (ص٧٣٧).

﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل، وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذرٍ من حيث ظنّ أنه مهتدٍ، وليس كذلك؟.

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله الّذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله مع تمكّنهم من الاهتداء، فزهدوا في الهدىٰ مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المُعرض عن ذكر الله في الدُّنيا مع قرينه؛وهو الضّلال والغي وانقلاب الحقائق، وأمّا حاله إذا جاء ربّه في الآخرة فهو شرّ الأحوال، وهو النّدم والتحسّر والحزن الّذي لا يجبر مصابه والتّبريّ من قرينه؛ ولهذا قال - تعالىٰ -: ﴿ **حتّىٰ إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** (٣٨) ﴾ [الزخرف: ٣٨]».

وذكر الإمام ابن القيّم - رحمه الله - :

إنّ من علامة صحّة القلوب أن لا تفتر عن ذكر الله - عزّ وجلّ -، وقول أبو الحسين الورّاق: إن حياة القلب في ذكر الحيّ الّذي لا يموت[١].

وذكر - أيضًا - : أنّه لا نعيم للقلب ولا لذّة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلاّ بمعرفة الله ومحبّته ، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلىٰ لقائه[٢].

وذكر - أيضًا - : أنّ من أعظم أسباب دواء القلوب الذّكر الدّائم بالقلب واللسان[٣]، وأنّه سمع شيخ الإسلام يقول: «الذّكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السّمك إذا فارق الماء»[٤].

---

(١) تقدّم.

(٢) «مدارج السّالكين» (١/ ٣٥٠).

(٣) انظر : «مدارج السّالكين» (١/ ٣٥١).

(٤) انظر : «الوابل الصّيّب من الكلم الطيب» (ص٤٩).

منزلة الطمأنينة

قال الإمام ابن القيّم [١] - رحمه الله - :

قال الله - تعالىٰ - : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ .

[الرّعد : ٢٨] .

وقال - تعالىٰ - : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

الطمأنينة :سكون القلب إلىٰ الشّيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف «**الصّدق طُمأنينة، والكَذب ريبةٌ**»، أي: الصّدق يطمئن إليه قلب السّامع، ويجد عنده سكونًا إليه، والكذب يوجب له اضطرابًا

(١) انظر :« مدارج السّالكين » (٢ / ٣٨٨ - ٣٨٩) .

وارتياباً، ومنه قوله - ﷺ - : «**البِرُّ ما اطمأنَّ إليه القلب**»[١]، أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان:

أحدهما: «أن ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق، فليس له ما يطمئن به سوىٰ ذكر الله».

ثمَّ اختلف أصحاب هذا القول فيه:

فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن علىٰ شيء، وسكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت، ويروىٰ هذا عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - .

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن.

---

(١) رواه أحمد وصححه العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع الصغير» (٢٨٨١) من حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه.

والقول الثاني: أنّ ذكر الله ههنا القرآن، وهو ذكره الّذي أنزله علىٰ رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين؛ فإنّ القلب لا يطمئن إلاّ بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلىٰ حصول الإيمان واليقين إلاّ من القرآن، فإنّ سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكّه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدّافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلاّ به[1]، وهذا القول هو المختار.

---

(١) نعم، ففي كتاب الله - عزّ وجلّ - الطمأنينة والسّعادة الحقيقية، ولكن لمن؟ لمن تدبّر كلام الله - عزّ وجل - وعمل به، وقدّم أمره ونهيه علىٰ هوىٰ نفسه وشهوته وملذّاته، فتطمئن به نفسه في الدُّنيا، ويكون شفيعًا له ولوالديه يوم القيامة، أما من لم يتدبّر القرآن، ولم يعمل به فإن القلق والضّيق ملازمه ولو كان حافظًا لكتاب الله - عزّ وجلّ -، فأعظم ما تشكو منه الأمة الإسلامية اليوم عدم العمل بكتاب الله - عزّ وجلّ - وتحكيمه وتدبّره وحفظه، فلابُدّ للحفظ من عمل، فمن حفظ القرآن ولم يعمل به كان من أول من تُسعر بهم النّار يوم القيامة - والعياذ بالله -، فكم نرىٰ اليوم من حفظ بلا عمل، فالمصيبة العظمىٰ التي ابتُليت بها الحركات ومعظم الجمعيات أن يُحفظ القرآن لغرض المسابقات والجوائز والشُّهرة، وهذا =

وكذلك القولان – أيضًا – في قوله – تعالىٰ –: ﴿ومَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(٣٦)﴾ [الزخرف: ٣٦].

والصَّحيح: أنّ ذكره الّذي أنزله علىٰ رسوله – وهو كتابه – من أعرض عنه: قيّض له شيطانًا يضله ويصده عن السّبيل، وهو يحسب أنّه علىٰ هدىً.

= ما نلامسه في واقعنا، فأصبحنا نرىٰ كثيرًا ممن يحفظ كتاب الله – عزّ وجلّ – بعيدًا كل البُعد عن العمل به، وعن اتّباع سُنّة النّبيّ – ﷺ – بل إن من أعجب العجب أن ترىٰ حافظًا لكتاب الله يرتدي البنطال المُسْبل الضّيّق الّذي يُجسّد عورته، وقد أفتىٰ أهل العلم أنّ الصّلاة به غير صحيحة لتجسيده للعورة، وترىٰ عليه أثار قصّات الشعر الغريبة المخالفة لنهج الإسلام، بل إننا والله قد سمعنا عن حُفاظٍ لكتاب الله في منطقتنا يرقصون علىٰ الأغاني والأناشيد.

فنقول لهم ولكل من حفظ شيئًا من كتاب الله: أنّ القرآن حجة لك أو عليك، إمّا أن تُرفع به إلىٰ أعلىٰ الدّرجات في الجنّة إذا أخلصت النيّة لله وعملت بما تحفظ، وإما أن تُسحب به إلىٰ نار جهنّم إن خالف الحفظ العمل، فاتق الله في حفظك، واقتفِ أثر النّبيّ – ﷺ – وأصحابه وسلف هذه الأمة؛ فالقرآن حجة لك أو عليك.

وكذلك القولان - أيضًا - في قوله - تعالىٰ -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

طمأنينة القلب بذكر الله

قال الإمام الحافظ ابن القيّم[١] - رحمه الله -:

« طمأنينة القلب بذكر الله، هي طمأنينة الخائف إلىٰ الرجاء، والضّجر إلىٰ الحكم، والمبتلىٰ إلىٰ المثوبة، فالخائف إذا طال عليه الخوف واشتدّ به، وأراد الله – عزّ وجلّ – أن يريحه، ويحمل عنه: أنزل عليه السّكينة، فاستراح قلبه إلىٰ الرجاء واطمأنّ به، وسكن لهيب خوفه.

وأمّا « طمأنينة الضّجر إلىٰ الحكم ».

فالمراد بها: أنّ من أدركه الضّجر من قوة التّكاليف، وأعباء الأمر وأثقاله – ولا سيّما من أقيم مقام التّبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطّاع الطّريق إليه – فإنّ ما يحمله ويتحمّله فوق ما يحمله النّاس ويتحمّلونه، فلابُدَّ أن يُدركه الضّجر، ويضعف صبره، فإن أراد الله أن

---

(١) انظر: «مدارج السّالكين» (ص ٢ / ٣٩١ – ٣٩٢) بتصرف.

يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه السّكينة، فاطمأن إلىٰ حكمه الديني، وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنّه إذا اطمأنّ إلىٰ حكمه الديني علم أنّه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأنّ إلىٰ حكمه الكوني: علم أنّه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له، وأنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا وجه للجزع والقلق إلاّ ضعف اليقين والإيمان، فإنّ المحذور والمخوف: إن لم يُقدر فلا سبيل إلىٰ وقوعه، وإن قُدّر فلا سبيل إلىٰ صرفه بعد أن أبرم تقديره.

نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة، فلا ينبغي أن يضجر عنها، وإن لم يكن فيها حيلة فلا ينبغي أن يضجر منها، فهذه طمأنينة الضجر إلىٰ الحكم، وفي مثل هذا قال القائل:

ما قد قضىٰ يا نفس فاصطبري له
ولك الأمـان من الذي لم يُقَـدّر
وتحـقَّـقي أنّ المقـدر كـائن
يجري عليك حذرت أم لم تحذري

وأمّا «طمأنينة المبتلىٰ إلىٰ المثوبة»:

فلا ريب أنّ المبتلي إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض.

وإنّما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب، وقد تقوىٰ ملاحظة العوض حتّىٰ يستلذ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تستبعد هذا، فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذُّ به، وملاحظته لنفعه تغيبه عن تألمه بمذاقه أو تخففه عنه، والعمل المعول عليه: إنّما هو علىٰ البصائر. والله أعلم».

فضل الذكر وعظمته [١] والحثّ عليه

قال – تعالىٰ –: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال – تعالىٰ –: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: لو لم يكن في الذّكر إلاّ هذه الفائدة وحدها لكفىٰ بها فضلاً وشرفًا [٢].

وقال – تعالىٰ –: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) انظر: «الحصن المختار» لشيخنا الرازحي – حفظه الله – (ص٩).
(٢) «الوابل الصيّب» (ص٥٨).

وعن أبي موسىٰ - رضي الله عنه - عن النّبيّ - ﷺ - قال: «**مثل الّذي يذكر ربه والّذي لا يذكره مثل الحيّ والميت**»[١].

وقال الله - تعالىٰ -: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١)﴾ [الأحزاب: ١٤].

وقال الله - تعالىٰ -: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال الله - تعالىٰ -: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال الله - تعالىٰ -: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال الله - تعالىٰ -: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

---

(١) أخرجه البخاريّ (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩) بلفظ: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت».

وقال الله – تعالىٰ –: ﴿ لا تُلْهِكُمْ أموالُكُمْ ولا أوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال الله – تعالىٰ –: ﴿ واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال بدر الدين العيني الحنفيّ [١] - رحمه الله -:

«وقوله – تعالىٰ –: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ في سورة البقرة، يعني: اذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة، فحقٌّ علىٰ الله أن يذكر من ذكره، فمن ذكره في طاعته ذكره الله بخير، ومن ذكره في معصيته ذكره الله باللعنة، وسوء الدار، وقيل: اذكروني في الرّخاء أذكركم في البلاء، وقيل: اذكروني في الضّيق، أذكركم بالمخرج، وقيل: اذكروني في الخلاء أذكركم في الملأ، وقيل:

(١) في كتابه «العلم الهيب بشرح الكلم الطيّب» لشيخ الإسلام (ص٣٩ – ٤١).

اذكروني في ملأ من الناس، أذكركم في ملأ من الملائكة، وقيل: اذكروني بالشكر أذكركم بالزّيادة، وقيل: اذكروني بالدعاء، أذكركم بالإجابة، وقيل: اذكرني في الدُّنيا بالإخلاص، أذكركم في الآخرة بالخلاص.

وقوله - تعالىٰ -: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ في سورة الأحزاب، يعني: اذكروا الله باللسان، واذكروه في الأحوال كلها؛ لأنّ الإنسان لا يخلو إما أن يكون في الطّاعة، أو في المعصية، أو في النعمة، أو في الشّدّة، فإذا كان في الطّاعة ينبغي أن يذكر الله ويقرُّ بالإخلاص، ويسأله القبول والتّوفيق، وإذا كانت في المعصية ينبغي أن يذكر الله ويقرُّ بالامتناع منه، ويسأله التوبة والمغفرة، وإذا كان بالنعمة يذكره بالشّكر، وإذا كان في الشّدّة يذكره بالصّبر.

وقوله - تعالىٰ -: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ يعني: باللسان من الرجال والنّساء، وهذا في مقام المدح للذّاكرين والذّاكرات، والذّاكر لله كثيراً لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما، وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم[١] من الذكر.

---

(١) والعلم المقصود هنا: هو علم الكتاب والسُّنّة، وهذا هو العلم الّذي فيه سعادة الدُّنيا والآخرة، وكذا الآيات والأحاديث الّتي تذكر منزلة العلم وأهله وما أعد الله لهم من خيرٍ ومنزلة وفضلاً وشرفًا هو قول الله - عزّ وجلّ - ورسوله - ﷺ - والصحابة - رضوان الله عليهم -، فلما ترك كثير من الناس هذا العلم واتّجهوا لغيره أُذلّوا من بعد عزهم، وأُهينوا من بعد كرامتهم، وقلّدوا من بعد تقليدهم وتعظيمهم، ولله درُ ابن القيّم حيث قال:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصّحابة ليس بالتّمويه

وقال ابن الورديّ في لاميّته:

واحتفل للفقه في الدّين ولا ... تشتغل عنه بمالٍ وخول

قال الشّيخ يحيىٰ الحجوريّ: «احتفل له، واعلم أنك مهما احتفلت للعلم لم تعطه حقّه، علم كتاب الله وسُنّة رسول الله - ﷺ -، احتفل للفقه في الدين، أمّا الفقه في أمور الدُّنيا دراسات دنيوية فلا تُصرف الأعمار فيها، فإنّ شرف العلم بقدر شرف المعلوم؛ فمن كان =

وقال - ﷺ -: «**من استيقظ من نومه، وأيقظ امرأته وصلّيا جميعًا ركعتين، كتبا من الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات**»[١].

وسُئلَ الشّيخ الإمام أبو عمرو بن الصّلاح عن القَدْر الّذي به يصير المرء من الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات؟!. فقال: «إذا واظب علىٰ الأذكار المأثورة المثبتة[٢] صباحًا ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهاراً كان من الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات»[٣].

وقد سألتُ بعض مشايخي عن حدِّ الذكر الكثير؟

= عنده علم نافع حصل له من الشرف النّافع، فتجد أصحاب علوم الدنيا ما لهم كبير مقدار؛ سنين قضوها، وأوقات قتلوها، ويُؤيّد هذا القول حديث معاوية - رضي الله عنه - الّذي في «الصحيحين»: «**من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» «شرح لاميّة ابن الوردي» للعلامة الحجوري (ص٦٨).

(١) أخرجه أبو داود (١٣٠٩) وصحّحه الألبانيُّ.

(٢) أي: الصّحيحة.

(٣) ذكره النّوويُّ في «الأذكار» (ص ١٣).

فأخبر أنّه قال: «سمعت من المشايخ الكبار: أنّ الذّكر الكثير: هو قول المصلي عقيب صلاته: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين مرة، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين مرة، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين مرة، والختم تمام المائة بلا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير».

وقوله - تعالىٰ -: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يعني: الّذين يذكرون الله في الأحوال كلها في حال القيام، والقعود، والاضطجاع».

أفضل الأعمال ذكر الله:

[١] عن أبي الدّرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**ألا أُنبّئكم بخير أعمالكم وأوفاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتهم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذّهب والورق، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم**

فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟!» ، قالوا : بلىٰ يا رسول الله، قال: «**ذكرُ الله**»[١].

قالَ العلاَمة بدر الدّين العيني الحنفي[٢] - رحمه الله-:

«واعلم أنّ شيخ الإسلام ابتدأ بذكر هذا الحديث في كتابه «الكلم الطّيِّب»، وأراد بإيراد هذا الحديث - ربّما ذكره عقيبه - أن يثبت أنَّ ذكر الله يُعدُّ أفضل الأعمال وأزكاها، فانظر كيف سمّاه صاحب الشّرع بخير الأعمال بقوله: «**ألا أُنبّئكم بخير أعمالكم**» ، فأشار - ﷺ - إلىٰ أنّ ذكر الله - عزّ وجلّ - أفضل من جميع الأعمال، وأنّه أزكىٰ الأعمال وأرفعها للدرجات، وأنّه أفضل من الصّدقة ؛ حيث قال: «**وخير لكم من إنفاق الذّهب والورق**»، وأنّه أفضل من الجهاد ؛ حيث قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٥)، والتّرمذيّ (٤٢٨)، وصحّحه الألبانيٌّ في «صحيح الجامع» (٢٦٢٩)، والوادعيّ في «الجامع الصّحيح» (٢/٥٢٢).

(٢) **انظر** : «العلم الهيب بشرح الكلم الطّيّب» (ص٤٦).

«**وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم**»، وضرب أعناق الأعداء جهاد، وأفضل من الشهادة حيث قال: «**ويضربوا أعناقكم**»؛ لأنّ الشّهادة الفاضلة أن تضرب الأعناق في أيدي الأعداء في سبيل الله بعد».

وقال الإمام الشّوكانيّ اليمانيّ (١) **- رحمه الله -:**

«قوله: «**بخير الأعمال**» فيه دليل علىٰ أنّ الذّكر خير الأعمال علىٰ العموم، كما يدلّ عليه إضافة الجمع إلىٰ الضّمير، وكذلك إضافة أزكىٰ وأرفع إلىٰ ضمير الأعمال، والزكاء النّماء والبركة، فأفاد كل ذلك أنّ الذّكر أفضل عند الله - سُبحانه وتعالىٰ - من جميع الأعمال الّتي يعملها العباد، وأنه أكثرها نماءً وبركة، وأرفعها درجة، وفي هذا ترغيب عظيم، فإنه يدخل تحت الأعمال كل عمل يعمله العبد كائنًا ما كان.

---

(١) انظر: «تحفة الذّاكرين بعدة الحصن الحصين» (ص٤٣).

قوله: «**وخير لكم من إنفاق الذّهب والفضة**» وفي نسخة: «**من إنفاق الذهب والورق**»، وفي نسخة: «**الجمع بين الفضة والورق**»، والورق هي الدراهم المضروبة، فعطفه علىٰ الفضّة من عطف الخاص علىٰ العام، وعطف إنفاق الذّهب والفضّة علىٰ ما تقدّم من عموم الأعمال مع كونه مندرجًا تحتها يدُلُّ علىٰ فضيلة زائدة علىٰ سائر الأعمال كما هو النكتة المذكورة في عطف الخاص علىٰ العام،وهكذا قوله:«**وخير لكم من أن تلقوا عدوكم**» وهذا من عطف الخاص علىٰ العام لكون الجهاد من الأعمال الفاضلة، وطبقته مرتفعة علىٰ كثير من الأعمال، وفي تخصيص هذين العملين الفاضلين بالذكر – أيضًا – بعد تعميم جميع الأعمال زيادة تأكيد لما دلّ عليه: «**ألا أنبّئكم بخير أعمالكم**» وما بعده من فضيلة الذكر علىٰ كل الأعمال، ومبالغة في النداء بفضله عليها، ودفع لما يظن من أنّ المراد بالأعمال

هاهنا غير ما هو متناه في الفضيلة وارتفاع الدرجة وهو الجهاد والصّدقة بما هو محبب إلىٰ قلوب العباد فوق كل نوع من أنواع المال وهو الذّهب والفضّة».

[٢] وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النّبيُّ - ﷺ -: «**سبق المفرّدون**» قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟! ، قال: «**الذّاكرون الله كثيراً والذّاكرات**»[١].

قال العلاّمة بدر الدّين الحنفي[٢] **- رحمه الله -:**

قال الجوهريّ: هم المتخلّون عن النّاس بذكر الله، لا يخلطون به غيره.

وقيل: المفردون: الموحدون الّذين لا يذكرون إلاّ الله، وأخلصوا دينهم وعبادتهم. وقيل: المفردون: الذين هلك أقرانهم، وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله. وقيل: هم الذين اهتزوا من ذكر الله[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) «العلم الهيب بشرح الكلم الطيب» (ص٨٠).

(٣) وليس المقصود بقوله: اهتزوا من ذكر الله: أي: كما يهتز الصّوفيّ إذا =

[٣] وجاء من حديث عبد الله بن بُسْر أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله - تعالىٰ -**»(١).

[٤] وعن أبي موسىٰ الأشعريّ - رضي الله عنه - عن النّبيّ

= ذكر الله، فطريقة الصّوفيّة في ذكر الله علىٰ الطار وباصوات جماعية طريقة مخالفة لهدي النّبيّ - ﷺ - فلم تثبت هذه الطريقة عن النّبيّ - ﷺ - ولا عن أحدٍ من أصحابه - رضوان الله عليهم - فهي طريقة مبتدعة مخالفة لطريقه وسُنّته - ﷺ - وهو القائل: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**» فأيّ عمل لم يعمله رسول الله - ﷺ -، واستحسنه النّاس فهو مردود علىٰ صاحبه غير مقبل، بل أن فاعله مأثوم إذا لم ينته ويتوب إلىٰ الله ويُبيّن خطأه للناس، والمقصود بقوله: «اهتزوا» أي من الخشية والمراقبة والخوف والأنس بذكره - تعالىٰ - والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٠)، والترمذيّ (٣٣٧٥)، وصحّحه الألبانيُّ في «صحيح الكلم الطيب» (رقم ٣)، والوادعيّ في «الجامع الصحيح» (٢/ ٥٢٢)، ولهذا الحديث ألفاظ كثيرة يصححها ويحسنها العلامة الألباني، ومنها: قوله - ﷺ -: «**خير العمل أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله**».

- ﷺ - قال: «مثل الّذي يذكر ربه، والّذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت»[١].

قال الإمام الشّوكانيّ اليمانيّ - رحمه الله -:[٢]

«وفي هذا التّمثيل منقبة للذاكر جليلة وفضيلة له نبيلة وأنه بما يقع منه من ذكر الله - عزّ وجلّ - في حياة ذاتيّة وروحيّة لما يغشاه من الأنوار، ويصل إليه من الأجور، كما أنّ التّارك للذكر، وإن كان في حياة ذاتية فليس لها اعتبار، بل هو شبيه بالأموات الّذين لا يفيض عليهم بشيء مما يفيض علىٰ الأحياء المشغولين بالطّاعة لله -عزّ وجلّ-، ومثل ما في هذا الحديث قوله-تعالىٰ-: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والمعنىٰ: تشبيه الكافر بالميت وتشبيه الهداية إلىٰ الإسلام بالحياة».

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤٠٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٢) «تحفة الذّاكرين» (٤٦).

[٥] وجاء من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**قال الله - تعالىٰ -: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**»[١].

قال الإمام الحافظ ابن القيم[٢] - رحمه الله -:

«لو لم يكن في الذكر إلاّ هذه الفائدة وحدها لكفىٰ بها فضلاً وشرفًا». أي: لو لم يكُن للذّاكر لله - عزّ وجلّ - إلاّ أن يذكره الله - عزّ وجلّ - في الملأ الأعلىٰ لكفىٰ بهذا الفضل والشّرف عن غيره.

[٦] وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «**كان النّبيُّ - ﷺ - يذكر الله علىٰ كُلِّ أحيانه**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاريّ (٧٤٠٥)، ومسلم (١٧).

(٢) «الوابل الصّيّب» (ص٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (٣٧٣).

[٧] وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن في الصُّفَّةِ فقال: «**أيّكم يُحِبُّ أنْ يغدو كلّ يوم إلىٰ بطحان أو إلىٰ العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟**». فقلنا: يا رسول الله، نُحبُّ ذلك، قال: «**أفلا يغدو أحدكم إلىٰ المسجد فيتعلّم أو يقرأ آيتين من كتاب الله - عزّ وجلّ - خير له من ناقتين، وثلاث خيرٌ له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ، ومن أعدادهنَّ من الإبلِ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٣).